

تفسير سورة القتال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴾ ﴿

يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: بآيات الله، ﴿ وَصَدُّوا ﴾ غيرهم ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها جزاء ولا ثوابا، كقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مُثْوَرًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانتادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾، عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ. ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ جملة معترضة حسنة؛ ولهذا قال: ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ قال ابن عباس: أى أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب. وقد جاء فى حديث تميم العاطس: «يهديكم الله، ويصلح بالكم» (١).

ثم قال عز وجل: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ﴾ أى: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أى: اختاروا الباطل على الحق، ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أى: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه فى معادهم.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْمَتْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ فِإِمَامًا مَّا بَعْدُ وَإِمَامًا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُعْطِيَ أَعْمَالَهُمْ سِوَىٰ مَا سَدَّدْتُمُوهُمْ وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ ﴾ ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَمْ يَأْتِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَضْرِبْكُمْ وَيُنَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ﴿

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حروبهم مع المشركين: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ ﴾ أى: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيف ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَثْمَتْتُمُوهُمْ ﴾ أى: أهلكتموهم قتلا ﴿ فَشُدُّوا ﴾ وثاق الأسارى الذين تأسروهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال

(١) الترمذى (٢٧٣٩) وقال: « هذا حديث حسن صحيح ».

المعركة مخيرون في أمرهم ، إن شتمت منهم فاطلقتهم أسارهم مجاناً ، وإن شتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه . والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فإن الله ، سبحانه ، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء ، والتقليل من القتل يومئذ فقال : **﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْجِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾** [الانفال : ٦٧ ، ٦٨] .

ثم ادعى بعض العلماء أن هذه الآية - المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه - منسوخة بقوله تعالى : **﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتَرُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾** الآية [التوبة : ٥] ، رواه العوفي عن ابن عباس . وقاله قتادة ، والضحاك ، والسدي ، وابن جرير . وقال الآخرون - وهم الأكثرون : ليست منسوخة . ثم قال بعضهم : إنما الإمام مُخَيَّرٌ بين المن على الأسير ومفاداته فقط ، ولا يجوز له قتله . وقال آخرون منهم : بل له أن يقتله إن شاء ، لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر ، وقال ثمامة بن اثال لرسول الله ﷺ حين قال له : « ما عندك يا ثمامة ؟ » فقال : « إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تمن تمن على شاكرك ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت » (١) . وراد الشافعي ، رحمه الله ، فقال : الإمام مخير بين قتله أو المن عليه ، أو مفادته أو استرقاقه أيضاً . وهذه المسألة مُحَرَّرَةٌ في علم الفروع ، وقد دللنا على ذلك في كتابنا « الأحكام » ، والله الحمد والمنة .

وقوله : **﴿ حَتَّى نَضَعَ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا ﴾** قال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام . وكأنه أخذه من قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال » (٢) . وقال قتادة : **﴿ حَتَّى نَضَعَ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا ﴾** : حتى لا يبقى شرك . وهذا كقوله تعالى : **﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾** [البقرة : ١٩٣] . ثم قال بعضهم : **﴿ حَتَّى نَضَعَ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا ﴾** أى : أوزار المحاربين ، وهم المشركون ، بأن يتوبوا إلى الله عز وجل . وقيل : أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله ، عز وجل .

وقوله : **﴿ ذَلِكَ وَتَوْشَاهُ اللَّهُ لَانْتَصَرْتُمْ مِنْهُمْ ﴾** أى : هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ، **﴿ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾** أى : ولكن شرع لكم الجهاد وقاتل الأعداء ليختبركم ، ويبلو أخباركم . كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتى « آل عمران » و « براءة » في قوله : **﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾** [آل عمران : ١٤٢] . وقال في سورة براءة : **﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيَذِيبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾** [التوبة : ١٤ ، ١٥] .

ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين ، قال : **﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴾** أى : لن يذهبها بل يكثرها وينمها ويضاعفها . ومنهم من يجرى عليه عمله في طول برِّه ، كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن المقدم بن معد يكرب الكندى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له في أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج من الحرور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع

إنكم ستجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤنى، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هبل، اعل هبل. فقال رسول الله ﷺ: «الا تجيبوه؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى. ولا عزى لكم. فقال: «الا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» (١).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أى: فى جنابهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كآكل الأنعام، خضماً وقضماً ليس لهم همة إلا فى ذلك. ولهذا ثبت فى الصحيح: «المؤمن يأكل فى مِعى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء» (٢). ثم قال: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أى: يوم جزائهم.

وقوله: ﴿وَكُلَّيْنِ مِنْ قَرْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْبَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ﴾ أى: مكة، «أهلكناهم فلا ناصر لهم» وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لاهل مكة، فى تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد الرسل وخاتم الانبياء، فإذا كان الله، عز وجل، قد اهلك الامم الذين كذبوا الرسل قبله، بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء، أن يفعل الله بهم فى الدنيا والاخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة فى الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفى على الكافرين به فى معادهم، ﴿بِضَاعِفٍ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَصْبِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]. وقوله: ﴿مِنْ قَرْبَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ﴾ أى: الذين اخرجوك من بين اظهريهم. عن ابن عباس: أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت إلى مكة - وقال: «انت أحب بلاد الله إلى الله، وانت أحب بلاد الله إلى»، ولو ان المشركين لم يخرجوني لم اخرج منك (٣). فاعدى الأعداء من عداء على الله فى حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذحول الجاهلية، فانزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَكُلَّيْنِ مِنْ قَرْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْبَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أهلكناهم فلا ناصر لهم».

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمَةٍ مِنْ رَيْبِهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۗ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَمْ يَكُن فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۗ﴾

يقول: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أى: على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه، بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة ﴿كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ؟﴾ أى: ليس هذا، كهذا، كقولها: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]، وكقولها: ﴿لَا يَسْعَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

ثم قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أى: نعمتها ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعنى غير متغير. والعرب تقول: أسن الماء، إذا تغير ريحه.

(٢) البخارى (٥٣٩٣) ومسلم (١٨٢/٢٠٦٠).

(١) البخارى (٤٠٤٣).

(٣) ابن جرير فى التفسير (٣٦/٢٦).

﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ أى: بل فى غاية البياض والحلاوة والدسومة ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى: ليست كريمة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ [الصافات: ٤٧]، ﴿ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ ﴾ [الواقعة: ١٩]، ﴿ بَيْضَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ [الصافات: ٤٦] ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ أى: وهو فى غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، وروى الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فى الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعده». ورواه الترمذى . وقال: حسن صحيح (١) . وفى الصحيح: «إذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تَجَرَّ أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» (٢) .

وقوله: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾، كقوله: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥] . وقوله: ﴿ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانٌ ﴾ [الرحمن: ٥٢] . وقوله: ﴿ وَمَنْظُورَةٌ مِنَ رَبِّهِمْ ﴾ أى: مع ذلك كله .

وقوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ أى: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد فى النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أى: ليس من هو فى الدرجات كمن هو فى الدرجات، ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴾ أى: حارا شديدا الحرا، لا يستطيع . ﴿ لَقَطَعْنَا أَمْعَامَهُمْ ﴾ أى: قطع ما فى بطونهم من الامعاء والاحشاء، عيادا بالله من ذلك .

﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۗ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَآتَاهُم تَقْوَاهُمْ ۗ فَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْ لَمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذَكَرْتَهُمْ ۗ فَأَعْلَجَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُتَوَكِّرِكُمْ ۗ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين فى بلادهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئا، فإذا خرجوا من عنده ﴿ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ من الصحابة: ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ أى: الساعة، لا يعقلون ما قال، ولا يكرثون له . قال الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح . ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ ﴾ أى: والذين قصدوا الهداية وفقههم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أى: الهمهم رُشدَهُمْ .

وقوله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى: وهم غافلون عنها، ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أى: إشارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِيِّ ۗ أُولَٰئِكَ الْأَرْفَاقُ ﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧]، وكقوله: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْتَشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿ أَنَّىٰ أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْجُلُوهُ ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ [الانبيا: ١]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله به الدين، وأقام به الحججة على العالمين . وقد أخبر ﷺ بآمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤتة نبي قبله، كما هو مبسوط فى موضعه . وقال الحسن البصرى: بعثة محمد

(٢) مضى تخريجه عند الآية (١٣٣) من آل عمران .

(١) المسند (٥/٥) والترمذى (٢٥٧١) .

عَلَيْكُمْ من أشرط الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء في أسمائه، عليه السلام، أنه نبي التوبة، ونبي الملحمة، والحاشر الذي يُحشِرُ الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي. وروى البخاري عن سهل بن سعد قال: رأيتُ رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتي تليها: «بعثتُ أنا والساعة كهاتين (١)». ثم قال تعالى: ﴿ فَأَنذِرْ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾ أي: فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا يتفهمون ذلك، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ [الفجر: ٢٣]، ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّوَابُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [سبا: ٥٢].

وقوله: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾: هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتنافى كونه أمراً يعلم ذلك؛ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي (٢)». وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت (٣)». وفي الصحيح أنه قال: «يا أيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإنني أستغفر الله وأنوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة (٤)». وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن سرجس قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فأكلتُ معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله. فقلت: استغفر لك؟ فقال: «نعم، ولكم»، وقرأ: ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾، ثم نظرت إلى نُعْمَانَ بن عبد الله بن جهم - وهو الأيسر، شعبة الذي شك - فإذا هو كهينة الجمع عليه التأليل. رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير (٥). والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جدا.

وقوله: ﴿ والله يعلم مقلبيكم ومغفرتكم ﴾ أي: يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم، كقوله: ﴿ وهو الذي يقرآكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ [الانعام: ٦٠]، وكقوله: ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستورها وسرعتها كل في كتاب مبين ﴾ [هود: ٦]. وهذا القول ذهب إليه ابن جرير، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: مقلبيكم في الدنيا، ومثواكم في الآخرة. والاول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوَّ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٦٦﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٦٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم ممنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله، عز وجل، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل

(٢) البخاري (٦٣٩٨).

(٤) البخاري (٦٣٠٧).

(٥) المسند (٨٤/٥) ومسلم (١١٢/٢٣٤٦) والترمذي في الشامل (ص ٣٨) والنسائي (١/١١٤٩٦) وابن جرير في

(١) البخاري (٤٩٣٦).

(٣) مسلم (١٩٩/٧٦٩).

(٥) المسند (٨٤/٥) ومسلم (١١٢/٢٣٤٦) والترمذي في الشامل (ص ٣٨) والنسائي (١/١١٤٩٦) وابن جرير في

التصوير (٣٤/٢٦).

قَرِيبٌ قُلُوبًا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ [النساء: ٧٧]. وقال عز وجل هاهنا : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ اى : مشتملة على حُكْم القتال ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةً وَذَكَّرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ اى : من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . ثم قال مشجعا لهم : ﴿ فَأَوَلَيْ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ اى : وكان الاولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا ، اى : فى الحالة الراهنة ، ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ ﴾ اى : جد الحال ، وحضر القتال ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ اى : أخلصوا له النية ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ اى : عن الجهاد وتكلمت عنه ، ﴿ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ اى : تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء ، تسفكون الدماء ، وتقطعون الأرحام ؛ ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴾ ، وهذا نهى عن الإفساد فى الأرض عموما ، وعن قطع الأرحام خصوصا ، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والفعال وبذل الاموال . وقد وردت الاحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ ، من طرق عديدة ، ووجوه كثيرة .

روى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : «خلق الله الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن عز وجل ، فقال : مه ! فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . فقال : الا ترضين أن اصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى . قال : فذاك» . قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ . ورواه مسلم (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى بكره قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من ذنب أحرى أن يجعل الله عقوبته فى الدنيا ، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة ، من البغى وقطيعة الرحم» . رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : هذا حديث صحيح (٢) . وروى الإمام أحمد عن ثوبان ، عن رسول الله ﷺ قال : «من سره النساء فى الأجل ، والزيادة فى الرزق ، فليصل رحمه» . تفرد به أحمد ، وله شاهد فى الصحيح (٣) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها» ، رواه البخارى (٤) . وروى أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «توضع الرحم يوم القيامة لها حُجَّةٌ كحجَّة المنزَّل ، تتكلم بلسان طَلْقٍ ذَلْقٍ ، تفصل من وصلها وتقطع من قطعها» (٥) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو - يبلغ به النبى ﷺ - قال : «الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء ، والرحم شُجَّةٌ من الرحمن ، من وصلها وصلته ، ومن قطعها بته» . وقد رواه أبو داود والترمذى ، وقال الترمذى : حسن صحيح (٦) .

(١) البخارى (٤٨٣٠ ، ٤٨٣١) ومسلم (١٦/٢٥٥٤) .

(٢) المسند (٣٨/٥) وأبو داود (٤٩٠٢) والترمذى (٢٥١١) وابن ماجه (٤٢١١) .

(٣) المسند (٢٧٩/٥) . وشاهده رواه البخارى (٥٩٨٦) ومسلم (٢٠/٢٥٥٧) .

(٤) المسند (٦٥٢٤) والبخارى (٥٩٩١) .

(٥) المسند (٦٧٧٤) وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» .

(٦) المسند (٦٤٩٤) ، وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» . وأبو داود (٤٩٤١) والترمذى (١٩٢٤) .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَمَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَّ لَهُمْ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٥﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى أمراً بتدبر القرآن وتفهمه، ونهايا عن الإعراض عنه، فقال: ﴿ أفلا يتذكرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه. ثم قال تعالى: ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم ﴾ أي: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، ﴿ من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم ﴾ أي: زين لهم ذلك وحسنه، ﴿ وأمل لهم ﴾ أي: غرهم وخدعهم، ﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سطيعكم في بعض الأمر ﴾ أي: مالوهم وناصرهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرهم خلاف ما يظنون؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ والله يعلم إسرارهم ﴾ أي: ما يرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال: ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعمت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿ ولو ترى إذ يقول الدين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ الآية [الأنعام: ٥٠]، وقال: ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ أي: بالضرب ﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما آسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغاثَهُمْ ﴾ ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَلَعَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَنُنَفِّسَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ ﴿ وَنَسَلُونَكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴾ ﴿

يقول تعالى: ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ ؟ أي: يعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى في ذلك سورة «براءة»، فيبين فيها فضائحهم وما يمتثلونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إما كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله: ﴿ ولو نشاء لأريناكنهم فلعرفتهم بسيماهم ﴾ يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه، وحملًا للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿ وتعرفتهم في لحن القول ﴾ أي: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بعماني كلامه وفضواءه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفتلات لسانه.

وقوله: ﴿وَلْتَلَوْنَكُمْ﴾ أى: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي، ﴿حَتَّى نَقُومَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَلَوَّ أَحْبَابَكُمْ﴾. وليس فى تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس فى مثل هذا: إلا لتعلم، أى: لترى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ ﴿٣٢﴾ بِأَيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلٰى وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكَبَ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى عن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يشبه على سالف ما تقدم من عمله الذى عقبه برده مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويحرقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات. ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته واطاعة رسوله التى هى سعادتهم فى الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذى هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية .

ثم قال جل علا لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهْتُوا﴾ أى: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أى: المهادنة والسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار فى حال قوتكم وكثرة عددكم وعددكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أى: فى حال علوكم على عدوكم، فإما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام فى المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك. وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَنْ يَرْكَبَ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفىكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً.

﴿إِنَّمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا لَبِيسٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنَّ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَوِّفْكُمْ تَبَخَّرًا وَيُخْرِجَ أَسْمَنَكَرُ ﴿٣٧﴾ هَآسِرُهُ هَآسِرًا لَّئِنِ دُعُوْتُ لِيُغْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيُنَكِّسْكُمْ مَن يَبَخَلُّ وَمَن يَبَخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَسْرُهُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهوينا لشأنها: ﴿إِنَّمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا لَبِيسٌ وَلَهُوَ﴾ أى: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أى: هو غنى عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم. ثم قال: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَوِّفْكُمْ تَبَخَّرًا﴾ أى: يحوجكم

تبخلوا: ﴿وَيُفْرَجْ أَحْقَابَاتِكُمْ﴾ قال قتادة: قد علم الله أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان. وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

وقوله: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُطْفَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾ أي: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ﴾ أي: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود ويبال ذلك عليه، ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائما؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ أي: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، لا يتفكون عنه. وقوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾ أي: عن طاعته واتباع شرعه ﴿يَسْتَعِيدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولاوامره.